مدخل إلى السيميائيات التداولية
إسهامات بيرس وشارل موريس

الأستاذ: هواري بلقندوز
كلية الآداب والفنون
جامعة مستغانم

قد يشكل على الباحث التحدث عن المسار الإبستمولوجي الذي سلكته الممارسات السيميائية تنظيرا ومراسا للخروج في شكلها النهائي أثرا مكتملا. ذلك أن الدرس السيميائي، بكل ما يعتروه من خصوصيات ومنذ اختماره فكرة في خلد مؤسسه الأول دوسوسير، إلى تجسده وجودا مكتملا مستقلا مع بيرس وموريس، ظل يراهن على مفاهيم قاعدية هي العلامة، الدلالة، القيمة، والسياق..إلخ، بغية تفسير التجربة الإنسانية العادية من منظورات متعددة ومختلفة، تتزاحم بموجبها العلوم الإنسانية والدقيقة مثل علم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة واللسانيات والرياضيات والمنطق وغيرها.

وقبل أن نجوس في مسارب هذه الإشكالية نقدر أنه من الضروري الإشارة إلى أن المعطى الاجتماعي التجريدي لسيميولوجيا دوسوسير أفضى إلى تمركز الدراسة حول آلية العلامة ووظيفتها التواصلية، مع تجاهل الجانب الإنجازي للعلامة، بله إقصائه خارج السيميولوجيا وبالتالي هو إقصاء للتداولية. وههنا نقطة انطلاق السيميائيات الأمريكية التي ترى أن البعد التواصلي ما هو إلا نمط خاص من أنماط السيميوزيس ينبغي لكي يكتمل مشروع الدراسة،أن تدرج باقي أنماط السيميوزيس ضمن السيميائيات.ومن هنا يبدو تدارك المعطى التداولي أمرا يتوقف على مدارسة الجانب الإنجازي للعلامة بكل ملابساته السياقية والتي نجملها في مقولات ثلاث هي:

- مفهوم الفعل L'Acte: أي إن الكلام هو فعل واقعي من جهة كونه تدشينا لمعنى يؤثر في المتلقي.

- مفهوم السياق Contexte: المقصود به الوضعية الملموسة التي تصاحب إنتاج أفعال اللغة المتعلقة بالمكان والزمان وهوية المتكلمين.

– مفهوم الإنجاز Performance: أي إنجاز الأفعال في السياق إما بتحقيق القدرات اللسانية للمتكلمين، وإما بتحقيق القدرة التواصلية Compétence communicationnelle بين المتكلمين. [1]

1-تأسيس السيميائيات ش.س. بيرس:(1839-1914)

تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن جهود الفيلسوف الأمريكي ش.س. بيرس تعد منعطفا حاسما في تطوير الدرس السيميائي الغربي انطلاقا من قاعدة معرفية منطقية وفلسفية ترتكز على نظرية المقولات المقتبسة عن كانط وهيجل وتستلهم الدعوات التي نادى بها المنهج الكلي ومركزية الجبر وفلسفة ديكارت (1650) ولايبنتز G. Leibniz (1716) وإ. دوكونديلاك E. Decondilk (1708)، وماركيز دوكوندورسيه M . De Condercet (1794) من ذي قبل. وانطلاقا من هذا الزخم المعرفي تبلورت طروحات بيرس الجديدة الداعية إلى ضرورة اعتماد منطق شكلي قوامه جبر العلامات ، يسعى إلى تفسير معاني و دلالات التجربة الإنسانية استنادا إلى معلومات أمبريقية وقواعد شكلية ذات طبيعة تأملية، بعيدا عن التصور اللغوي الذي سرعان ما التزم به دوسوسير في مجال اللسانيات البنيوية.

ضمن هذا السياق، يكون المنطق حسب تعبير بيرس، اسما آخر للسيميائيات بوصفها نظرية شكلية للعلامات. قوامها جملة القوانين التي تنظم هذه العلامات، يكون مجموعها لغة معينة في علاقة مع الفكر. وإذ ذاك، تكون السيميائيات ضابطا لهذا الفكر، شأنها في ذلك شأن المنطق. وما دام الإنسان يفكر من خلال العلامات، فإنه يتعين على الباحث السيميائي رصد هذا التفكير في مستوى العلامات ذاتها.

ويبدو أن بيرس لم يبتكر مصطلح السيميائيات من عنده، بل استلهمه من المصطلح الذي أطلقه جون لوك على العلم الخاص بالعلامات والدلالات والمعاني المتفرع من المنطق والذي اعتبره لوك علم اللغة.(2)

وعلى غرار تصور لوك يرى بيرس أن موضوع السيميائيات هو السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة وتداولها أو ما سماه بـــ: السيميوزيس (semiosis). تلك السيرورة التي يشتغل بموجبها شيء ما باعتباره علامة. ويبدو أن مفهوم السيميوزيس

يقترب من مفهوم الوظيفة السيميائية fonction Sémiotique عند يالمسليف باعتبارها بداية وغاية لكل فعل سيميائي.

هكذا يصير السيميوزيس عبارة عن دلالات متناسلة وغير منتهية يحركها اشتغال عناصر ثلاثة هي: الممثل Representamen

- الموضوع Objet
- المؤول Interprétant'.(3)

بيد أن السيميائيات بهذا المفهوم تغدو حقلا ينكب على البحث في أنساق العلامات، وذلك على مستويين اثنين: أولهما أنطولوجي يعنى بماهية العلامة أي بوجودها وطبيعتها وعلاقاتها بالموجودات الأخرى ائتلافا واختلافا، والثاني تداولي يعنى بفاعلية العلامة وتوظيفها في الحياة العملية.(4) وما من شك في أن اعتبار هذين المستويين في دراسة العلامة كان له تأثير بالغ على التعميقات المنهجية التي شهدها هذا الحقل المعرفي في فترات لاحقة.

1-1مفهوم العلامة عند بيرس

ينطلق بيرس من تحديده للعلامة من منطلق السيرورة الدلالية التداولية (السيميوزيس) القائم على مقولة الثلاثية Triadique خلافا لنظيره دوسوسير الذي حصر مفهوم العلامة في مقولة الاختلاف أو التعارض الثنائي دال/مدلول. فالعلامة أو الممثل Représentamen هو : " شيء ما يمثل شيئا ما، بالنسبة لشخص ما، بمظهر ما أو إمكانية ما".(5) (شيء ما) معناه كل ما يمكن أن يكون حاملا ماديا لما هو في الواقع، ويريد به اللغة، الألوان...وغير ذلك. خلافا لدوسوسير الذي حصر الحامل المادي في الصورة السمعية. (بالنسبة لشخص ما) المقصود به لفكر وذهن ذلك الشخص الذي يستقبل ذلك الشيء. (يمثل شيئا ما) يريد به الشيء الحقيقي الموجود في الواقع، (بمظهر ما أو إمكانية ما) معناه أن الشيء الممثل لا يتفرد بحالة واحدة.

بالإضافة إلى ذلك، اعتمد بيرس في تقسيمه للعلامة على مبدأ التثليث انطلاقا من العناصر الثلاثة المكونة للعلامة وهي: الممثل_الموضوع_المؤولة. على نحو يغدو معه التقسيم الثلاثي الأول باعتبار (المثل) إلى:

- علامة نوعية (طبيعية) Qualisigne؛

- علامة متفردة (عقلية) Sinsigne؛
- علامة عرفية Légisigne.

بينما يكون التقسيم الثلاثي الثاني باعتبار العلاقة بين الموضوع والمؤولة إلى:

- الأيقونة Icône؛
- المؤشر/الشاهد Index؛
- الرمز Symbole.

أما التقسيم الثلاثي الثالث فيكون باعتبار المؤولة:

- تصور Rhème؛
- تصديق Dicisigne؛
- حجة Argument.

ويمكن أن نمثل هذا التقسيم وفق الخطاطة التالية:

	العلامة	**الموضوع**	**المؤولة**
الممثل باعتباره علامة	**علامةطبيعية نوعية**	**علامة متفردة (عقلية)**	**علامة عرفية**
العلامة بالنظر إلى الموضوع	**أيقونة**	**مؤشر/شاهد**	**رمز**
العلامة بالنظر إلى المؤولة	**تصور**	**تصديق**	**حجة**

ما يمكن أن نلاحظه من خلال هذه الخطاطة هو أن أي طرف في هذا التقسيم يعد علامة ذات وظيفة دلالية ثلاثية، تشتغل بدورها ضمن فضاء سيرورة السيميوزيس كما لو كانت عنصرا من عناصر العلامة.

ثم إن هذا التقسيم الجبري للعلامات الذي اقترحه بيرس يستند إلى أبعاد ثلاثة:

– بعد نحوي نمطي: يمثله التقسيم الثلاثي الأول (ع. نوعية، ع. متفردة، ع. عرفية)؛

– بعد أنطولوجي دلالي: يمثله التقسيم الثلاثي الثاني (أيقونة، مؤشر، رمز)؛

– بعد منطقي تداولي: يمثله التقسيم الثلاثي الثالث (تصور، تصـــديق، حجة)؛(6).

1-2المعطى التداولي لوظائف العلامات

وما نخلص إليه عقب هذا العرض هو أن المعطى التداولي لمشـــروع بيـــرس السيميائي يقوم أساسا على مقولة الفعل Acte، حيث أن الحكمة التداولية لبيرس تقضي بأن الإنتاج الثلاثي للدلالة يتوجه نحو الفعل. وبأن الفكرة التي نكونها عن الأشياء هي مجمل الآثار التي نرتئي إمكانيتها انطلاقا من الأشـــياء.(7) وإذا كـــان (الفعـــل) فـــي اصطلاح التداوليين هو تدشين لمعنى يؤثر في المتلقي، فبإمكاننا أن نعتبـــر الأيقونـــة –بوصفها فعلا سيميائيا– تدشينا لمعنى هو التصور، وكذلك الأمـــر بالنســـبة للمؤشـــر والرمز. بالإضافة إلى ذلك فإن العلامة النوعية مثلا يشترط فيها التجسد في الواقع لأن وجودها في الواقع يكتسي طابعا معنويا لا حسيا، وبالتالي لا يمكن اعتبارهـــا علامـــة حقيقية حتى تتجسد بصفة فعلية. فالعطر مثلا علامة نوعية طبيعية ذات وجود معنوي، إذا تجسدت فعليا في الواقع أصبحت علامة حقيقية، يمكن أن نسميها علامـــة إنجازيـــة انطلاقا من المعطى التداولي لمقولة الإنجاز Performance.

أما العلامة المتفردة (العقلية) والعرفية فتؤطرهما مقولة السياق Contexte على نحو تبدو فيه الأولى فعلية تشكل علامة بحكم نوعيتها وتتضمن بدورها علامة عرفيـــة قوامها الإدراك القائم على التصديق العرفي. فرؤية الدخان مثلا علامة على النـــار أو الاحتراق؛ في حين تستمد العلامة العرفية طاقتها التدليليـــة مـــن ســـياق المواضـــعة Convention ، وينبني إدراكها على مقوم الحجة Argument؛ فصورة الميزان مثلا في سياق المواضعة القانونية يرمز إلى العدالة، لكن سرعان ما تنحرف دلالتـــه إلـــى سياقات أخرى بمجرد إفلاته من معيار هذه المواضعة.

2. إسهامات شارل ويليام موريس (1938):

اهتم شارل موريس منذ سنة 1938 على غرار فريج Freege بدور التســـجيل الرمزي في العلوم، وهو متحمس لمشروع بيرس حول سيرورة العلامات في مجموعها.

بل راح يستلهم مقولات بيرس في معظم أبحاثه، مؤسسا انشغاله على نظريـــة عامـــة للعلامات تنطلق من قاعـــدة معرفيـــة متعـــددة الاختصاصـــات Interdisciplinaire أنثروبولوجية، فلسفية وسلوكية و منطقية.

تبدو السيميائيات في نظر موريس في علاقة مزدوجة بالعلوم، كونها علما مـــن بين العلوم من جهة، وأداة في خدمة العلم من جهة ثانية. وهي إذ ذاك، تعد مرحلة نحو وحدة العلوم من حيث إنها تقدم دعامة للعلوم الإنسانية المتخصصة في نمط من أنمـــاط العلامة. وإلى أبعد من هذا يضيف موريس أن الموضوعات التي تطرقها العلوم الدقيقة تعد علامات مشروكة بطريقة معقدة مع تلك التي تطرقها العلوم الإنسانية. ويتولد عـــن هذه الشراكة مشروع واسع لتوحيد العلوم الدقيقة والإنسانية ضمن إطار نظرية عامـــة للعلامات. ولإنجاز هذا المشروع يتوجب على السيميائيات في نظر موريس أن توحـــد لغتها الخاصة، وتسعى لمقولة الخطاب الشارح حول العلامات Métadiscours، بغية تبسيط العلم، ما دامت أداة للعلوم، وإرغانون (Organon) دراسة العلوم بالنسبة لما بعد العلم (Métascience).(8).

2-1مفهوم السيميوزيس عند موريس:

قد لا نكاد نلمس في وفاء موريس لطروحات بيرس حول العلامة والسيميوزيس إلا ذلك التفرد المؤطر بالنزعة السلوكية البراغماتية، أبدى من خلاله موريس دفاعا عن تأويل سلوكي لنظرية العلامات على الرغم من إيمانه العميق بحياد الدرس الســـيميائي بالنظر إلى التعارض بين النزعتين الذهنية والسلوكية. وعلى الرغم مـــن ذلـــك، لـــم يتجاوز هذا التفرد تأكيد بيرس نفسه على الخاصية الفردية لكل سيميوزيس.(9) ويتبنى موريس عقب بيرس التعريف نفسه الخاص بالسيميوزيس ويميز فيه بين ''الشيء الذي يعمل كدليل وبين ما يحيل عليه الدليل، وبين مفعول الدليل على أي شخص شارح كيفما كان نوعه، وبمقتضى ذلك المفعول يصبح الشيء المقصود دليلا بالنسبة لهذا الشـــخص الشارح. ويمكن أن تسمى هذه المكونات الثلاثة للسيميوزيس على التـــوالي بالـــدليل – الحامل والمعين والمؤول، ويمكن أن يدرج الشخص الشارح كمعامل رابع".(10) وبعد مرور ست وعشرين سنة من بلورة مفهوم السيميوزيس (1964) يضيف موريس مكونا آخر هو مفهوم السياق. وفي ضوء ذلك ينظر إلى السيميوزيس على أنـــه علاقـــة ذات

خمسة أطراف، تلك العلاقة التي تخلق فيها العلامات التهيؤ للفعل بطريقة مخصوصـــة في الأشخاص الشارحين، تجاه نمط معين من الموضوعات، في ظل بعـــض الشـــروط السياقية، وبالتالي فإن هذه الأطراف هي بمثابة خصوصيات علائقية يتم ترصدها مـــن خلال الانخراط في الصيرورة الوظيفية للسيميوزيس.

يشير موريس عقب ذلك إلى أنه بإمكاننا دراسة السيميوزيس بمعزل عن ســـياق سيميوزيس العلاقات التي يطلق عليها (Dyadiques) مسلما بثلاث علاقات هي:

- العلاقة الشكلية للعلامات فيما بينها: و تتحقق من خلال البعد النحـــوي التركيبـــي للسيميوزيس.
- علاقة العلامات بالموضوعات: تتحقق من خلال البعد الدلالي للسيميوزيس.
- علاقة العلامات بالمؤولين: وهي علاقة تداولية للسيميوزيس تحيلنا علـــى علاقـــة العلامات بمستعمليها.

وهكذا نخلص إلى حقيقة مؤداها أن النسق السيميائي لدى موريس يتحدد في أبعاد ثلاثة: النحوية- الدلالية – التداولية؛ بحيث يشير البعد الأول إلى مميزات اللغة من جهة تعقد بنياتها النحوية، بينما يتعلق الثاني باتساع مجال الأشياء التي تشير إليها العلامات اللغوية، أما البعد الثالث، فيحيل على الغايات التي تتلاءم معها. ونحن إذ نهم بمقارنـــة كهذه نكتفي بالوقوف عند البعد الثالث (التداولية) لاعتبارات منهجية تقصدناها سلفا.

2-2المكون التداولي في سيميائيات ش.موريس:

اقترح ش. موريس منذ سنة 1938 تعريفا للتداولية على أنها "ذلك الفرع مـــن السيميائيات الذي يدرس العلاقة القائمة بين العلامات ومستعمليها. وفي مقام لاحق من أبحاثه يوضح موريس أنه ما دامت العلامات تمتلك أعضاء حية بوصفها مؤولات، تغدو التداولية بحثا في مظاهر حياتية السيميوزيس يمثلها مجموع المظـــاهر الســـيكولوجية والبيولوجية التي ترتبط بنشاط العلامات.

ولعل أهم ما يميز المعطى التداولي لمشروع موريس هو تمييزه بين التداوليـــة المحضة، والتداولية الوصفية، على أن تكون هذه الأخيرة موضوع التعريف المشار إليه آنفا، بينما تعنى التداولية المحضة بإنجـــاز اللغـــة أو الكـــلام علـــى البعـــد التـــداولي للسيميوزيس مجسدا في مقولات الفعل والإنجاز والسياق بوصفها وظـــائف علامـــات

للثبت والفهم.(11) وعقب ذلك ينبغي أن ننوه بمفهوم القواعد التداولية الذي أشار إليـــه موريس على أن هذه القواعد تمثل جملة الشروط الخاصة للتأويلات التي تكـــون فـــي إطارها العلامات–الحوامل/السيارة Signes Véhicules بمثابة علامات وظيفية بحيث تعمل كل قاعدة بطريقة سلوك نمطي خاص بكل قطب من أقطاب السيميوزيس، ومـــن جملة هذه القواعد هناك قواعد تداولية خصوصية تعبر عـــن الشـــروط التـــي يجـــب استيفاؤها لدى المؤول حتى تعمل بوصفها حروف تعجب مثل "أوه" وأوامر مثل: "إلى هنا" واصطلاحات تقويمية مثل: "لحسن الحـــظ"، وغيرهـــا مـــن الأســـاليب البلاغيـــة والشاعرية. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن عملية تأصيل هذه الشـــروط– فـــي حدود عدم استنفاذها لسياقاتها التداولية– تتم في اصطلاحات النحو والدلالـــة. وعندئـــذ يكتمل الطابع العام للوصف اللغوي.(12)

وانطلاقا من مقولة السياق التداولية يؤكد موريس على أن العلامة اللسانية تتحدد بحكم استعمالها في تنسيق مع علامات أخرى مستعملة (منجزة) من قبل أعضاء جماعة اجتماعية، وما دامت اللغة نظاما اجتماعيا للعلامات الوسيطة، ينطـــوي فهمهـــا علـــى استعمال تنسيقات وتحويلات العلامات.(13)

خلاصة القول إن تداولية موريس أقرب من سيميائية بيرس ، وأبعد من أن تكون تداولية لسانية محضة وهي بذلك تنخرط في دائرة الدرس االسيميائي العام الذي تغطي حيثياته كل مظاهر الحياة خارج اللغة وخارج الـــوعي. وأخيـــرا إذا كـــان موضـــوع السيميائيات عند بيرس هو النسق الســـيميائي مـــن حيـــث كونـــه ســـيرورة دلاليـــة (سيميوزيس)، فإن مشروع موريس يكاد يلطف من غلياء ذلكم النسق الترميزي بتركيزه على الملابسات التداولية للأشخاص الشارحين كموضوع لمشروعه الخاص متجـــاوزا النسق السيميائي إلى النسق التداولي.

ومع هذا وذاك يظل المشروع السيميائي يبحث عن معالم تحدد أطره المرجعية، وموضوعاته وممارساته الإجرائية، في علاقاته بالعلوم الأخرى ، وذلك لرسم منهجه، وتشييد مقولاته، وتبيان أدبياته من خلال الممارسات التطبيقية التي تمتد علـــى نطـــاق أوسع ضمن نظرية تحليل الخطاب.ولعل هذا ما حذا برولان بارت في أبحاثه المتألقـــة إلى إثارة جملة من القضايا التي تتعلق بنضج هذا المشروع وتبلور قضاياه.

هوامش وإحالات

1) – ينظر: F. Armenguaud : La Pragmatique; Presse Universitaire de France- Paris. 1985 ;P.8

2) – ينظر: نبيل راغب: موسوعة النظريات الأدبية– مكتبة لبنان، ناشـــرون، دار بوبال للطباعة، ط1. 2003. ص 366؛

3) – ينظـــر: P. Guirraud et A. Rey : Théorie du sens Lecturer II ; Paris. Ed. Klincksieck ; 1976. P.82

4) – ينظر: سيزا قاسم: السيموطيقا حول بعض المفاهيم والأبعـــاد/مـــدخل إلـــى السيميوطيقا، مقالات ودراسات، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد. دار إليـــاس العصرية، القاهرة؛1986 ص19

5) – ينظر: C.S. Pierce : Ecrits sur le Signe; Paris; Le Seuil. 1978. P121؛

6) – ينظر: مبارك حنون، تقديم الترجمة العربية لكتاب مرسيلو دسكال؛ الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. دار فريقيا الشرق، المغرب ، ص5

7) – ينظر: فرنسواز ريمينكو، مالمقاربة التداولية. ترجمة سعيد علوش. مركـــز الإنماء القومي، بيروت – 1986. ص19.

8) – نفسه ص..24

9) – مارسيلو داسكال، المرجع السابق، ص.21

10) – وليام شارل موريس نقلا عن مارسيلو داسكال. (الترجمة)، المرجع السابق، ص.20

11) – ينظر: فرانسواز ارمينوكو – المرجع السابق، ص.30

12) – نفسه، ص ص 29 – 30،

13) – نفسه ص 30.